شرح قصيدة أضحى التنائي

تُعدّ قصيدة أضحى التنائي من بين أجمل القصائد الأندلسية التي كتبها أحد أشهر وأعظم شعراء الأندلس الشاعر والوزير والسياسي ابن زيدون، وهي قصيدة نونية كتبها الشاعر على البحر البسيط، قال فيها:

- **أَضحى التَنائي بَديلاً مِن تَدانينا / / / وَنابَ عَن طيبِ لُقيانا تَجافينا**
  أَلا وَقَد حانَ صُبحُ البَينِ صَبَّحَنا / / / حَينٌ فَقامَ بِنا لِلحَينِ ناعينا

كتب الشاعر ابن زيدون هذه القصيدة بعد الفراق الذي حصل بينه وبين محبوبته ولادة بنت المستكفي، فيقول: صار التنائي بديلًا عن التداني والقرب الذي كان بيننا، وحل بدل طيب اللقاء التجافي والفراق والنزاع، ثم يقول: ها قد حال موعد صباح الفراق الذي تصبحنا به، والآن سوف ينعانا ناعي البين والفراق بعد أيام الوصل والقرب.

- **إنَّ الزَمانَ الَّذي ما زالَ يُضحِكُنا / / / أُنساً بِقُربِهِمُ قَد عادَ يُبكينا**
  غيظَ العِدا مِن تَساقينا الهَوى فَدَعَوا / / / بِأَن نَغَصَّ فَقالَ الدَهرُ آمينا
  فَانحَلَّ ما كانَ مَعقوداً بِأَنفُسِنا / / / وَانبَتَّ ما كانَ مَوصولاً بِأَيدينا
  وَقَد نَكونُ وَما يُخشى تَفَرُّقُنا / / / فَاليَومَ نَحنُ وَما يُرجى تَلاقينا

يقول الشاعر: إنّ الزمان الذي كان يضحكنا ويفرحنا بالأنس والقرب واللقيا والعناق هو ذاته الزمان الذي عاد يبيكينا بالفراق والبعد والبين، ثم يقول: إنّ الأعداء والذين لا يريدون لهذا الحب أن يكتمل شعروا بالغيظ من الهوى والحب الذي كان بيننا، فدعوا علينا بالغصة والفراق: فقال الدهر آمين مؤمّنًا على دعائهم.

فما حل بنا إلّا أنّ جاء الفراق وانقطع الوصول الذي كنا نكتبه بأيدينا، وذهبت تلك الأيام التي كُنا نكون فيها معًا ولا نخشى من تفرقنا، وجاءت هذه الأيام التي صرنا فيها نرجو التلاقي بعد الفراق والبين.

- **يا لَيتَ شِعري وَلَم نُعتِب أَعادِيَكُم / / / هَل نالَ حَظّاً مِنَ العُتبى أَعادينا**
  بِنتُم وَبِنّا فَما اِبتَلَّت جَوانِحُنا / / / شَوقاً إِلَيكُم وَلا جَفَّت مَآقينا
  نَكادُ حينَ تُناجيكُم ضَمائِرُنا / / / يَقضي عَلَينا الأَسى لَولا تَأَسّينا

يقول الشاعر ويتساءل: هل كسب الذين سعوا إلى إفساد الود بيني وبين ولادة شيئًا، ما الأمر الذين جناه المفسدون والواشون، ثم يقول: ابتعدت ولادة وابتعدت عنها ومنذ وقت الفراق لم تجف المآقي من الدمع والبكاء، ثم يقول: إنّ الأسى يكاد أن يقضي عليه لولا أنّ التأسي والتصبر يواسيه في هذه المحنة التي يعيشها وبعد هذا الفراق الذي يعاني منه.

- **حالَت لِفَقدِكُمُ أَيّامُنا فَغَدَت / / / سوداً وَكانَت بِكُم بيضاً لَيالينا**
  إِذ جانِبُ العَيشِ طَلقٌ مِن تَأَلُّفِنا / / / وَمَربَعُ اللَهوِ صافٍ مِن تَصافينا
  لِيُسقَ عَهدُكُمُ عَهدُ السُرورِ فَما / / / كُنتُم لِأَرواحِنا إِلّا رَياحينا

يقول ابن زيدون: تغيرت أيامنا بعد فقدكم فصارت سودًا بعد أن كانت الليالي بوصلكم بيضاء ناصعة، فالعيش معكم كان طلقًا رائعًا هانئًا، واللهو كان صافيًا نعيش فيه أجمل اللحظات والدقائق، ثم يدعو الشاعر بعد ذلك بالسقيا لذلك العهد الرائع والذي كنتم فيه لأرواحنا كالرياحين.

- **لا تَحسَبوا نَأيَكُم عَنّا يُغَيِّرُنا / / / فَطالَما غَيَّرَ النَأيُ المُحِبّينا**
  وَاللَهِ ما طَلَبَت أَهواؤُنا بَدَلاً / / / مِنكُم وَلا اِنصَرَفَت عَنكُم أَمانينا
  دومي عَلى العَهدِ ما دُمنا مُحافِظَةً / / / فَالحُرُّ مَن دانَ إِنصافاً كَما دينا

يخاطب الشاعر ابن زيدون في هذه الأبيات محبوبته ولادة بنت المستكفي، فيقول لها: لا تحسبي أنّ الفراق الذي حصل بيننا سوف يغيرنا حتّى لو غير الفراق المحبين من قبل، ولكن هواي سوف يبقى أنت، فلم تتغير أهوائي عنك ولم تنصرف أمانيّ

عنك، فأنت غاية المنى والفوز بك غاية الفوز، فابقي على العهد ما دمت عليه، فمن طبع الحر الكريم أن ينصف ويُعامِل بما يُعامَلُ.

- **فَما اِستَعَضنا خَليلاً مِنكِ يَحبِسُنا / / / وَلا اِستَفَدنا حَبيباً عَنكِ يَثنينا**
  وَلَو صَبا نَحوَنا مِن عُلوِ مَطلَعِهِ / / / بَدرُ الدُجى لَم يَكُن حاشاكِ يُصبينا
  عَلَيكِ مِنّا سَلامُ اللَهِ ما بَقِيَت / / / صَبابَةٌ بِكِ نُخفيها فَتَخفينا

يتابع الشاعر حديثه وخطابه لولادة بنت المستكفي؛ فيقول: ما استعضت عنك بحبيب ولا خليل، ولو حاول بدر الدجى أن يغير حبي لك ويحجبه عنك فلن يستطيع؛ فلو حاول البدر أن يصبيني لن أصبو، ثم يرسل إلى ولادة سلامًا عظيمًا، يقول: عليك السلام ما بقيت بيننا صبابة أخفيها وتخفيها أنت عن أعين الوشاة والحاسدين.